العرب
الخميس 2020/05/28
السنة 42 العدد 11714

أطماع تركيا تتخطى ليبيا سعيا لاحتواء دول الساحل والصحراء

التمركز في شمال أفريقيا يفتح شهية أنقرة للتوجه نحو تشاد

الرهان على جني ثمار الإرهاب

نزلت أنقرة في الأشهر الأخيرة بكامل ثقلها لدعم حكومة فايز السراج ماليا وعسكريا. وفي ظل وجود إجماع على أن الهدف التركي هو حماية مشروع الإسلام السياسي في ليبيا وفي كامل شمال أفريقيا، فإنه يوجد في المقابل اتفاق في التحليلات على أن حلمها الثاني يتخطى ليبيا ويذهب إلى أبعد من ذلك بالتفكير في التمدد بدول الساحل والصحراء عبر السعي لتأمين البوابة الجنوبية ومن ثمة الاتجاه نحو تشاد بالاستناد على الجماعات المتطرفة المدعومة منها ومن الدوحة.

محمد أبوالفضل
كاتب مصري

القاهرة – مخطئ من يظن أن أطماع تركيا سوف تتوقف عند ليبيا أو شمال أفريقيا. ومخطئ أكثر من يتصور أن الروابط التي جمعت أنقرة والتنظيمات الإرهابية قاصرة على التغلغل في الدول العربية.

لقد مهد النظام التركي لمشروعه الإسلاموي منذ سنوات في أفريقيا، وبدأ في تجريف التربة عبر أدوات ناعمة وأخرى خشنة. استخدم في الأولى سلاح المساعدات عن طريق "تيكا" وأخواتها، وفي الثانية عمل على احتضان المتشددين ومدهم بالدعم اللوجستي الذي مكنهم من اختراق العديد من الجبهات المحلية في أنحاء القارة.

سلاح التطرف

ربما لم يلتفت كثيرون إلى عمق الروابط التحتية وتفاصيلها بين تركيا والمتطرفين في دول مثل تشاد والنيجر ومالي ونيجيريا والكاميرون وغيرها، لأن الواجهة القطرية حرفت أنظارهم بعيدا عنها مبكرا.

وانصب الرصد على العلاقات التي تربط الدوحة والحركات المتطرفة العاملة في هذه الدول، وضبطت قطر متلبّسة بتقديم الدعم في أوقات كثيرة وجرى توجيه اتهامات لها، إلى أن تكشفت الكثير من الأدلة حول الدور المشترك لكل من تركيا وقطر في ليبيا، وما صاحب ذلك من توقعات تخص استعداد أنقرة لمد نفوذها إلى ما وراء الحدود الليبية.

تبدو البيئة القريبة من ليبيا مهيأة لتوثيق التعاون والتنسيق بين أنقرة والطيف الواسع من التنظيمات الإرهابية النشطة، والتي ضاعفت من تحركاتها خلال الأسابيع الماضية بالتزامن مع تزايد معالم الحضور التركي في ليبيا، واكتسبت مساحات جديدة من الأرض والنفوذ على إثر انهماك قوى كبرى في محاربة كورونا، وتخفيف حملاتها على المتطرفين، بما ساعدهم على التقاط الأنفاس، وشن حملات موسعة على نقاط ارتكاز جديدة.

ارتاح هؤلاء لرمي تركيا بثقلها في الساحة الليبية، لأن التركيز الإقليمي ينصب عليها هناك، ما يمنح التكفيريين مناسبة أكبر للحرية في الحركة إلى ما هو أبعد. وبدأت جماعة بوكو حرام التي ولدت أصلا في نيجيريا تتواجد بكثافة في المنطقة المعروفة بدول حوض تشاد مؤخرا، كأنها تلقت إشارات بالمزيد من التوسع، وتحقيق انتصارات بالتزامن مع تحويل المقاربة التركية في ليبيا إلى واقع ملموس.

ونجحت في جر الجيش التشادي للالتحام معها مباشرة، بما يخفف الضغط على الجبهة الليبية الجنوبية التي تحولت إلى مسرح عمليات مفتوح لقوى تشادية متباينة، ومصدر لضخ المرتزقة وتوريدهم لخوض الحروب التي تنخرط فيها حكومة طرابلس. قد تظهر عليها مكونات برودة أو سخونة، لكن في الحالتين يصعب تغييبها في الحسابات الليبية.

أصبحت تشاد خلال الفترة الماضية هدفا محوريا لجماعة بوكو حرام، ووقعت معارك ضارية بين القوات التشادية وعناصر تنتمي لهذه الجماعة، سقط فيها ضحايا بالعشرات من الجانبين. فقد كان الهدف الرئيسي وضع جبهة تشاد فوق بركان من التوترات المتلاحقة، وإحياء الدور الذي تقوم به حركات متطرفة تكبدت خسائر على يد قوات الجيش الوطني الليبي منذ عامين بالتعاون مع القبائل هناك، منها الذي تلاشى أو فضل الكمون أو الهروب.

لتشاد تاريخ مرير مع المتطرفين، وقطر ربيبة تركيا في المعادلة التي تتحكم في هؤلاء، وقطعت العلاقات مع الدوحة في أغسطس 2017، وأغلقت سفارتها في إنجامينا، ودعتها إلى وقف جميع الأعمال التي من شأنها أن تقوض أمن تشاد، فضلا عن أمن دول حوض بحيرة تشاد والساحل، واتهمتها مباشرة بمحاولة زعزعة أمنها واستقرارها عن طريق ليبيا.

حاولت قطر إفساد العلاقات بين ليبيا وتشاد عن طريق تيمان إردميي، رئيس ما يسمى باتحاد قوى المقاومة، وهو ابن أخ الرئيس إدريس ديبي وأحد معارضيه، ولعب دورا مهما في منطقة فزان الليبية، وأقام لفترة طويلة في الدوحة، وعندما توارت نسبيا وأعادت علاقتها مع إنجامينا، ظهرت في الواجهة أنقرة، حيث أجبر افتضاح أمر الأولى على تهدئة تحركاتها المعلنة وطبخ تسوية مرضية مع تشاد وتقديم تنازلات سياسية ومساعدات مادية، مع فتح المجال أمام تفعيل أذرع تركيا.

واتهم الجيش الليبي قطر بدعم إرديمي الذي ألقي القبض عليه من قبل القوات التشادية في فبراير العام الماضي، وهو يقود فصيله المسلح في الجنوب الليبي، إلى جانب عشرات الحركات المسلحة والمتمردة، من السودان وتشاد والتنظيمات الإرهابية والمتطرفة لضرب الجيش وسلخ مناطق واسعة من الجنوب الليبي لإقامة بؤرة إرهابية جديدة في المنطقة.

تمكن الجيش التشادي من ملاحقة الكثير من العناصر الإرهابية، منها أسر نحو 250 إرهابيا، بعد دخول قافلة من المتمردين إلى تشاد قادمة من الأراضي الليبية في نهاية يناير 2018، وتدمير أكثر من أربعين سيارة، ومصادرة قطع كبيرة من السلاح، والاتجاه لمواصلة عمليات التطهير في منطقة أنيدي في شمال شرق تشاد، على مقربة من الحدود مع ليبيا والسودان.

> البيئة القريبة من ليبيا مهيأة لتوثيق التعاون بين أنقرة والطيف الواسع من التنظيمات الإرهابية النشطة

ودخل هذا المثلث حزام الفوضى منذ سنوات، نتيجة نشاط المتمردين والتكفيريين وتجار المخدرات ومهربي البشر والبارعين في الهجرة غير الشرعية، الأمر الذي جعل السيطرة الأمنية عليه عملية غاية في الصعوبة، وبدا الطريق منفتحا حتى ربوع مالي وما خلفها، بصورة استفزت الكثير من القوى الإقليمية والدولية.

في فبراير 2019 قامت مقاتلات فرنسية بضرب قافلة مسلحة تابعة لمتمردين مدعومين من تركيا وقطر، عبرت من جنوب ليبيا لاستهداف الرئيس التشادي إدريس ديبي، إلا أنه تم تدمير نحو 20 شاحنة صغيرة، بعد أن طلب ديبي دعما من باريس، وضمت القوة المشتركة المدعومة من فرنسا وتحارب تنظيم بوكو حرام قوات من تشاد والكاميرون والنيجر ونيجيريا.

تتجه أنظار الكتائب المسلحة والمرتزقة والإرهابيين إلى الجنوب الليبي، إذا تمكنت من تأمين طرابلس والغرب، لأن الشرق لا يزال يمثل خطا أحمر بالنسبة لها في هذه المرحلة، وقد يجرها للتحرش مبكرا بمصر وتكبد خسائر باهظة، بينما يمثل التمدد في منطقتي الوسط والجنوب مسألة حيوية لتفريغهما من الجيش الليبي، ومنه يمكن الالتحام مع الجماعات الإسلامية في دول الساحل والصحراء التي تعد الذخيرة التي تدخرها تركيا للاعتماد عليها.

توترات متلاحقة

تحتفظ التنظيمات المتشددة بدرجة من الخلافات البينية، لكنها تستطيع صهرها وتذويبها أو تجاوزها عندما تواجه خصما واحدا، وهذه هي الثيمة التي اشتغلت عليها تركيا، نجحت فيها أحيانا وأخفقت في أحيان أخرى، وطبقتها في الأراضي السورية، ومكنتها في النهاية من الاحتفاظ بمظلة معنوية لكل الأجنحة التكفيرية، وشرعت في إعادة تكرار هذه اللعبة في دول الساحل والصحراء، وحتى المعارك التي جرت بين تنظيمي القاعدة وداعش في مالي أو غيرها، من السهولة أن تحتويها تركيا، لأن المصلحة التكتيكية تقتضي ذلك.

يكتشف المراقب أن هذا المشروع جرى الإعداد له بوتيرة متسارعة منذ سنوات، عندما اتجهت قطر ومن بعدها تركيا، لتمديد خيوط التعاون مع الفصائل المعارضة في تشاد والسودان ومالي ونيجيريا، تارة بذريعة رعاية مفاوضات تهدف لتحقيق السلام، وأخرى عبر قنوات مختلفة لتوصيل الدعم للإرهابيين، حتى تغول هؤلاء وهؤلاء، وباتت الحكومات المحلية هشة وغير قادرة على المجابهة، وضعف بعضها إلى درجة الرضوخ للضغوط الخارجية، والقبول بفتح الأراضي لما يسمى بالقوى الناعمة التي تحولت لستار تتدثر به أجهزة المخابرات التركية.

تأتي الخطورة من امتلاك أنقرة لجملة من الأوراق في منطقة الساحل والصحراء، من أن تتفرغ تركيا بعد تجميع الآلاف من إرهابيي سوريا لتتجه إلى المخزون الأفريقي السخي، وتحاول ربط أعضائه من خلال شبكة مصالح معقدة تتجاور فيها الأبعاد المحلية مع الإقليمية.

خصمان في سوريا حليفان في ليبيا

الحبيب الأسود

تونس – تنظر إيران بعين الحذر إلى الوضع في ليبيا لكن مراكز الدراسات التابعة للنظام الإيراني تدعو إلى التخندق ضمن محور تركيا وقطر منافستيها اللدودتين في سوريا، اعتقادا منها بأن سيطرة الجيش الوطني بقيادة المشير خليفة حفتر على العاصمة طرابلس يعتبر انتصارا لمحور الاعتدال العربي، وخاصة المملكة العربية السعودية ودولة الإمارات العربية المتحدة اللتين واجهتا مشروعها التوسعي في اليمن.

ويشير المراقبون إلى أن طهران اختارت أن تناقض توجهاتها هذه المرة، توجهات حلفائها في موسكو ودمشق، وأن تقف مع نفس المحور التركي القطري الذي تواجهه في سوريا بما في ذلك الميليشيات المتطرفة والجماعات الإرهابية الموالية لأنقرة.

وتوصلت الدراسات التي أعدها عدد من المراكز الإيرانية المتخصصة إلى أن انتصار حفتر لا يخدم مصالح إيران وإنما قد يجتث دورها المتنامي في شمال أفريقيا ودول الساحل والصحراء.

وفي هذا السياق، نشر مركز "أبرار للدراسات والأبحاث" في إيران ، دراسة بعنوان "ما هو موقف إيران من الصراع الدائر في ليبيا" ترجمها موقع "جاده إيران" إلى اللغة العربية ومما جاء فيها أن "الساحة الليبية تشهد منذ الإطاحة بالعقيد معمر القذافي العديد من التطورات والأحداث المتلاحقة. وعلى الرغم من أن الجمهورية الإسلامية لم يكن لها دور فعال على الساحة الليبية، إلا أن دخول العديد من القوى الإقليمية والدولية على المشهد الليبي وخاصة القوى المعادية للجمهورية الإسلامية المتمثلة في المملكة العربية السعودية والتي يمكن من خلال دعمها لقوات الجنرال حفتر أن تبسط نفوذها على منطقة الشمال الأفريقي".

وتضيف الدراسة "من أجل ذلك ولاستبيان الموقف عن كثب عقد معهد طهران للدراسات المعاصرة في الخليج الفارسي وشمال أفريقيا ورشة عمل تحت عنوان: التطورات الليبية وتبعاتها الإقليمية على جمهورية إيران الإسلامية، وحضر اللقاء مجموعة من الخبراء والباحثين في هذا الشأن وناقش الاجتماع عدة محاور وهي متابعة التطورات الليبية والقوى الفاعلة في المشهد الليبي ورفع توصيات لصناع السياسات الإيرانية".

يبدو من خلال عنوان ورشة العمل أن طهران مهتمة بشكل جدي بالتطورات في الساحة الليبية وما يمكن أن ينجر عن ذلك من انعكاسات على نظام الملالي الذي لم يخف تطلعاته بعد ما سمي بثورات الربيع العربي للعب دور محوري في شمال أفريقيا.

وقطعت ثورة 30 يونيو 2013 في مصر طريق التحالف بين طهران مع جماعة الإخوان التي تبدو أكثر تيارات الإسلام السياسي السني تماهيا مع دولة الإمام الفقيه.

وفي 1 مايو 2018 قامت السلطات المغربية بقطع علاقاتها مع إيران بسبب اتهامات تفيد بتسهيل عمليات إرسال الأسلحة والدعم العسكري من جانب طهران لجبهة "البوليساريو" الانفصالية، كما أن الأوضاع الداخلية والتحولات الإقليمية عرقلت المشروع الإيراني في دول المغرب العربي ومنها ليبيا بشكل واضح رغم محاولات عدة للتواصل مع الميليشيات في طرابلس ومصراتة.

وجاء في الدراسة التي أعدها مركز أبرار، أنه "منذ قيام الثورة الليبية شهدت ليبيا العديد من الصراعات والانقسامات، فعلى الرغم من انتخاب الشعب لممثلي المؤتمر الوطني العام في أول تجربة ديمقراطية لهم، إلا أن هذه التجربة لم تتكلل بالنجاح، فدخول الإسلاميين في المجال العام وفرض آرائهم وتوجهاتهم على المجتمع آثار حفيظة الليبيين وحدث أول انقلاب فاشل على السلطة الشرعية المنتخبة، حيث سعى الكونغرس الأميركي مع بعض القوات شبه العسكرية إلى عزل رئيس الوزراء".

وتضيف "أدى انعدام الأمن والاستقرار في ليبيا وبروز التيار الإسلامي في الحياة السياسية إلى دخول ليبيا في صراع جديد بين التيار الليبرالي والإسلامي، فشن الجنرال خليفة حفتر أولى معاركه ضد التيار الإسلامي وأطلق عليها اسم معركة الكرامة مستعينا في ذلك بالجيش الليبي السابق، نتيجة لما سبق خسر التيار الإسلامي في الانتخابات البرلمانية التالية إلا أنهم لم يقبلوا بهذه الخسارة ودارت معارك بينهم وبين قوات الجنرال حفتر" وذلك في إشارة إلى منظومة فجر ليبيا الإرهابية التي شكلها الإخوان للانقلاب على نتائج الانتخابات البرلمانية التي انتظمت في مايو 2014 وأفرزت هزيمة قوى الإسلام السياسي.

> طهران اختارت أن تناقض توجهات حلفائها في موسكو ودمشق بالوقوف في صف المحور التركي القطري الذي تواجهه في سوريا

وتتابع الدراسة أن هذه المعارك بين التيارين الليبرالي والإسلامي مهدت الطريق لظهور التيارات التكفيرية في البلاد مما رفع الأزمة الليبية إلى مستوى جديد. في ذلك الوقت كان يسيطر كل من الأطراف المتصارعة على جزء محدد من ليبيا، وأثار وجود الجماعات السلفية في ليبيا القلق لدى الدول الغربية خشية عودة الإسلام المتطرف مرة أخرى مما دفع إلى عقد مباحثات مباشرة بين الكونغرس الأميركي ومجلس النواب الوطني وعلى أثر هذه المفاوضات تم تعيين فايز السراج رئيسا للمجلس الرئاسي الليبي (في إشارة إلى اتفاق الصخيرات في ديسمبر 2016)".

وتستخلص أن "هذا الوضع لم يرض بعض الأطراف الإقليمية كون السراج محسوبا على تيار الإخوان المسلمين وتجدد الصراع مرة أخرى بين قوات حفتر المدعوم من الإمارات ومصر وفرنسا وروسيا والسراج المدعوم من تركيا وبعض الدول الغربية، نتج عن هذا الصراع الآلاف من القتلى وانعدام الأمن والاستقرار".

ووفق المركز الإيراني فإن "دخول السعودية والولايات المتحدة في تطورات المشهد الليبي، يدفع إيران إلى دراسة وتقييم المشهد الليبي".

من خلال هذه التقديرات، فإن العقل السياسي الإيراني المرتبط بعقيدة النظام ربط المسائل في ما بينها وفق تصوراته الخاصة، حيث تنعكس مساعيه الدائمة للتوسع على حساب الدول الأخرى على قراءته للعلاقات بين بقية الدول.

وفي هذا الصدد تزعم الدراسة أن من بين أسباب الدعم السعودي لحفتر هو السيطرة على طرابلس وإرساء نظام عسكري ليبي موال للمملكة، وتطبيق التجربة المصرية في ليبيا ومنع الإخوان المسلمين من الوصول إلى السلطة في البلاد، مشيرة إلى أن التطورات الحالية تعزز موقع السعودية في شمال أفريقيا.